أدهشني الفرح

سيرة حياة سي. أس. لويس
ورحلة الانتقال من الإلحاد إلى الإيمان

سي. أس. لويس

ophir

قائمة المحتويات

تقديم الطبعة العربيَّة ٧
المقدِّمة ٩
الفصل ١: السنوات الأولى ١١
الفصل ٢: معسكَرُ التعذيب ٣٥
الفصل ٣: ماونتبريكن وكامپل ٦٣
الفصل ٤: وسَّعتُ عقلي ٨١
الفصل ٥: عصرُ النهضة ١٠١
الفصل ٦: الدم ١١٧
الفصل ٧: الضَّوء والظِّلال ١٤١
الفصل ٨: التحرُّر ١٦٥
الفصل ٩: "نوك" العظيم ١٨٥
الفصل ١٠: وابتسمَ الطَّالع ٢٠٩
الفصل ١١: كِش ملك ٢٣١
الفصل ١٢: أسلحةٌ ورفقةٌ طيِّبة ٢٥٣
الفصل ١٣: النظرةُ الجديدة ٢٧٣
الفصل ١٤: كِش ملك...مات ٢٩٥
الفصل ١٥: البداية ٣١٩

تقديم الطبعة العربيَّة
بقلم د. أوسم وصفي

يستطيع سي. أس. لِويس إدراكَ الأفكار والمشاعر، على نحوٍ يُثيرُ في القارئ العجب من إمكانيَّة إدراك مثل هذه الأفكار الدقيقة والمشاعر المُرهفة. ويستطيع لِويس أيضًا أن يُطوِّع اللغةَ لتعبِّر عن أمورٍ ما كُنَّا نعتقدُ لولاه أنَّه يمكن التعبير عنها بهذا القدر من الوضوح والجرأة.

في هذا الكتاب يكتب لِويس سيرته الذاتيَّة، ويصف أعماقَ نفسه في مراحل الطفولة والمراهقة والرُّشد، ويرسُمُ مثل فنَّانٍ تشكيليٍّ مُرهَفِ الحسِّ ألوانَ خِبراتِه وعلاقاته في هذه المراحل، فنتعجَّب كيف يُمكن أن يحظى إنسانٌ بمثل هذه المواقف الفكريَّة والوجدانيَّة الواضحة والمحدَّدة من كلِّ شيء وكلِّ شخص من حوله، وبهذه الدقَّة والحدِّة والشاعريَّة.

أمَّا عن حياة المعرفة والقراءة التي عاشها منذ طفولته، فهي مصدرُ تحدٍّ قويٍّ لنا، علاوةً على أنَّها مثيرةٌ للإعجابِ على نحو يجعلُنا نشكر الله على خَلقِ هذا الإنسان وتَشكيلِه.

يحكي لِويس لنا في هذه الصفحات عن ذلك التشكيل، وأعدُك أنَّ الفرحَ سيُدهشُك في هذا الكتاب.

د. أوسم وصفي، مترجم الكتاب

القاهرة، أيلول/سبتمبر ٢٠١٨م

المقدِّمة

ألَّفتُ هذا الكتاب جزئيًّا استجابة لمطالبات بأن أروي الكيفيَّة التي انتقلتُ بها من الإلحاد إلى المسيحيَّة، وأيضًا رغبة منِّي في تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي يبدو أنَّها شاعَت حول ذلك الأمر. أمَّا إلى أيِّ حدٍّ تُهِمُّ هذه القصة أحدًا غيري، فهذا يعتمد على الدرجة التي اختبر بها الآخرون ما أُسَمِّيه "**الفرح**". إذا كان ذلك الأمر شائعًا، فأظنُّ أنَّه قد يكون مفيدًا أن أحاولَ تقديم معالجة أكثر تفصيلًا للأمر. لقد تشجَّعتُ أن أكتب في هذا الأمر؛ لأنِّي ألاحظ أنَّ المرء نادرًا ما يذكر ما افترضَ أنَّه أحاسيسُ شديدةُ الخصوصيَّة دون أن يحصل على الأقلِّ على ردِّ فعل واحد (كثيرًا ما يكون أكثر من ذلك) من الحاضرين من قبيل: "ماذا؟ أنت أيضًا شعرتَ بذلك؟ لقد ظننتُ أنِّي وحدي مَن أشعر به".

يستهدفُ هذا الكتاب أن يروي قصَّة تحوُّلي الإيمانيِّ، وهو ليس سيرة ذاتيَّة عامَّة، كما أنَّه ليس تمامًا "اعترافات" كاعترافات القدِّيس أغسطينوس أو روسو. ويعني هذا عمليًّا أنَّه مع استمرار السَّرد، يقلُّ التشابه بينه وبين كُتُب السِّيَر الذاتيَّة. في الفصول الأولى، يجب أن أنشُر الشبكةَ باتِّساع كي يفهم القارئ نوعيَّة شخصيَّتي التي صَنَعتَها سنوات الطفولة والمراهقة، وذلك عندما تأتي الأزمة الروحيَّة الصريحة. وعندما يكتمل "بناء" الصورة الشخصيَّة، سألتزمُ تُجاه الغرضِ من الكتاب التزامًا صارمًا، وأمتنع عن ذِكْر أشياء أخرى (وإن كان ذكرها

مهمًّا لكُتُب السِّيَر الذاتيَّة المُعتادة) لكونها ستبدو عندئذٍ خارجةً عن إطار الموضوع. وأنا لا أعتقد أنَّ هذه خسارةً كبيرة؛ فأنا لم أقرأ سيرةً ذاتيَّة إلَّا وكانت الأجزاء المُكرَّسة للسنوات الأولى هي الأكثر تشويقًا.

أخشى، إلى حدِّ الاختناق، أنَّ هذه القصَّة ذاتيَّة جدًّا، من النوع الذي لم أكتبه من قبل وأغلب الظنِّ أنِّي لن أكتبَه من بَعد. لقد حاولت أن أكتب الفصل الأوَّل بطريقة تجعل الذين لا يطيقون مثل هذه القصص يُدركون من البداية ما هُم مُقدِمون عليه لكي يغلقوا الكتاب باكرًا مع أقلِّ قدرٍ من إضاعة الوقت.

سي. أس. لِويس

١

السنوات الأولى

"سعيدٌ لكنْ على قدر السعادة، أنا فاقد للأمان".

ميلتون (Milton)

وُلِدتُ في شتاء ١٨٩٨م في بلفاست، لأبٍ يعمل كاتِبَ عَدل وأمٍّ ابنة أحد رجال الدِّين. كان لوالديَّ ابنان فقط، وكُنتُ أنا الأصغر بنحو ثلاث سنوات. كما أتينا من سلالتَين مختلفتين تمامًا. كان أبي ينتمي إلى الجيل الأوَّل من أسرته الذي استطاع أن يصل إلى هذه المكانة المِهنيَّة. كان جَدُّهُ مُزارِعًا ويلزيًّا، أمَّا أبوه، فكان رجُلًا عصاميًّا، بدأ حياته عاملًا هاجَرَ إلى إيرلندا، وانتهى به الأمر شريكًا في شركة ماكيلواين ولويس (Macilwaine and Lewis) "لصناعة الغلَّايات والهندسة وبناء السُّفن من الحديد الصُّلب". أمَّا أُمِّي فكانت تنتمي إلى أسرة هاملتون (Hamilton) سليلة أجيال عدَّة من رجال الدِّين والمحامين والبَحَّارة، وما شابَه. ومن جهة جدَّتي لأمِّي، يعود العِرقُ إلى أحد الفُرسان

النورمانديِّين الذي تقبع عظامُه في دَير المعارك.[1] كانت الأسرتان اللتان انحدرتُ منهما مُختَلفتَين في الطِّباع كما هُما مختلفتان في الأصول. كان قومُ أبي ويلزيُّون تقليديُّون عاطفيُّون شغوفون، ويتمتَّعون بالبلاغة اللغويَّة وحِدَّة المشاعر. كان من السَّهل إغضابُهم، ومن السَّهل جعلهم يتحوَّلون بسُرعة إلى الرِّقَّة والعذوبة. كانوا رجالًا يضحكون ويبكون كثيرًا، وليس لديهم الكثير من المواهب المؤدِّية إلى السعادة. أمَّا آل هاملتون، فكانوا عِرقًا بارِدًا. كانت عقولُهم ناقدة وساخرة، ولديهم مواهب السعادة هذه، بدرجة عالية- يذهبون في إثر السعادة بصورة تلقائيَّة، مثلما يتَّجه المُسافرون أصحاب الخبرة بسُرعة نحو أفضل المقاعد في القطار. من سنوات حياتي الأولى، كُنتُ واعيًا بالتناقض الصارخ ما بين مشاعر أُمِّي الهادئة المُبتهجة، وتقَلُّبات حياة أبي الوجدانيَّة، وقد ربَّى ذلك فيَّ، قبل حتَّى أن أستطيع أن أُسمِّيه بوقتٍ طويل، نوعًا من عدم الثقة بالمشاعر والنفور منها بوصفها أمرًا محرجًا وغيرَ مريح وربَّما خطيرًا أيضًا.

كان والديَّ، بمقاييس ذلك الزمان والمكان، مُثَقَّفَين و"ذكيَّين". كانت أُمِّي في شبابها واعِدةً في مجال الرياضيَّات، وتحمل درجة البكالوريوس من كلِّيَّة الملكة (Queen's College)، في بلفاست. وقد استطاعت قبل وفاتها أن تؤسِّس فيَّ تَعَلُّم اللغتَين الفرنسيَّة واللاتينيَّة.

---

١) هو الدير الذي شيَّده الفرسان النورمانديُّون في القرن الحادي عشر بناءً على طلب من البابا ألكسندر، للتكفير عن المذابح التي اقترفوها في أثناء فتح إنكلترا (المترجم).

لقد كانت أيضًا قارئة نَهِمة للروايات الجيِّدة، وأعتقد أنَّ روايات ميريديث (Meredith) وتولوستوي (Tolstoy) التي ورثتُها، كانت قدِ اشتُرَت من أجلها هي. أمَّا ذائقة أبي فكانت مختلفة؛ إذ كان مولعًا بالخطابة وكان في شبابه مُتحدِّثًا في المنابر السياسيَّة في إنكلترا، وأعتقد أنَّه لو كان لديه الإمكانات المستقلَّة، لأحرزَ مُستَقبلًا سياسيًّا واعدًا. وأعتقد أنَّه كان سينجح، إلَّا إذا كان إحساسه المُبالغ فيه بالكرامة إلى حَدّ الوَهم، قد جعله شخصًا من الصَّعب التعامُل معه؛ لأنَّه كان يمتلك الكثير من المواهب التي يحتاج إليها رجل البرلمان- حضورٌ طيِّب، وصوتٌ رَنَّان، وسُرعة بديهة كبيرة، ولباقة، وذاكرة قويَّة. كانت روايات ترولوپ (Trollope) السياسيَّة أثيرة لديه، وبمتابعة المسيرة السياسيَّة لفينحاس فين (Phineas Finn)[٢] كان أبي يتماهى معه، فيُشبع بهذا رغباته الدفينة. كان مولعًا بالشِّعر، شرطَ أن يحوي عُنصرًا بلاغيًّا أو حماسيًّا، أو كلَيهما معًا. وأعتقد أن "عُطيل" كانت مسرحيَّته الشيكسپيريَّة المفضَّلة. كان شديد الاستمتاع بأغلب الكتَّاب الساخرين، من ديكنز (Dickens) إلى دبليو. دبليو. جاكوبز (W. W. Jacobs)، وكان هو نفسه يكاد يكون بلا مُنازِع، أفضل راوٍ استمعت إليه في حياتي، الأفضل من نوعه، وهو النوع الذي يمثِّل أدوارَ كلِّ الشخصيَّات، مستخدمًا بُحرِّيَّة الإيماءات والتقطيبات، والتمثيل الصامت. لم يكن يشعرُ بسعادة أكبر من التي يشعر بها عندما يجلس ساعةً مع عمٍّ أو اثنَين من أعمامي يتبادلون

٢) هو أحد أبطال قصص ترولوپ (المترجم).

القصص الطريفة. أمَّا ما لم يكن لديه، أو لدى أمي، ميل إليه، فهو ذلك النوع من الأدب الذي أعطيتُه أنا كلَّ ولائي منذ اللحظة التي أصبحتُ فيها قادرًا على اختيار كُتبي بنفسي. لم يستمع بتاتًا لنفير أبواق أرض الأقزام، ولم تكن في البيت أيُّ نُسخ من أعمال كيتز (Keats) أو شيلي (Shelley)، ونُسخة كوليردج (Coleridge) التي كانت موجودة، لم تكُن (على حدِّ علمي) قد فُتِحَت يومًا. فإذا كُنتُ قد أصبَحتُ رومانسيًّا، فليس لوالِدَيَّ أيَّة مسؤوليَّة عن ذلك. في الواقع كان أبي يُحب تينيسون (Tennyson)، لكنَّه كان تينيسون في روايات مثل "التأبين" (Memoriam) و"صالة لوكسلي" (Locksley Hall). لم أسمع منه أيَّ كلام عن روايات أخرى لتينيسون مثل "**آكلو اللوتس**" *(Lotus Eaters)*، أو "**ميِّتة آرثر**" *(Le Morte d'Arthur)*. أمَّا أُمي فقد قيل لي إنَّها لم تهتمَّ بالشعر كثيرًا.

علاوةً على الوالدَين الجيِّدَين، والطعام الجيِّد، والحديقة الفسيحة (كما بدت بمعايير ذلك الوقت) لألعب فيها، بدأتُ الحياةَ بِبَرَكَتَين أُخرَيَين: إحداهما كانت مُربِّيتنا، ليزي إنديكوت (Lizzie Endicott)، التي لم تجد فيها ذاكرتي الطفوليَّة الثاقبة أدنى عيب– لا شيء سوى الطِّيبةِ والمرح والعقل الراجح. كانت مهنة "المربِّيات" بالغة الجدِّيَّة في ذلك العصر. بواسطة ليزي ضربْنا جذورَنا في قاع الحياة الريفيَّة. هذا جعلنا لا نشعر بالاختلاف ما بين الطبقات الاجتماعيَّة، وهذا هو سبب المناعة التي تمتَّعتُ بها طَوالَ عمري التي منعتني أن أربطَ ذلك

الرَّبطَ الكاذب الذي يقوم به بعض الناس، ما بين التصرُّف بحسب الثقافة والتقاليد من جهة، والفضيلة من جهةٍ أخرى. من قبل حتَّى أن أستطيع التذَكُّر فَهِمتُ أنَّ بعض النكات يمكن مُشاركَتها مع ليزي، ومن المستحيل إلقاؤها في غُرفة الرَّسم، وفهمت أيضًا أنَّ ليزي كانت أقرب ما يُمكن أن يكونَه الإنسان من الصَّلاح.

البَركة الثانية كانت أخي. رُغم أنَّه كان يكبرني بثلاث سنوات، فلم يبدُ بتاتًا بصفةِ أخٍ أكبر؛ فقد كنَّا حُلفاء، علاوةً على كَوننا كاتمي أسرار بعضنا بعضًا من البداية. لكنَّنا كنَّا مختلفين تمامًا. كانت أولى الصور التي رسمناها (ولا أستطيع أن أتذكَّر وقتًا لم نكن فيه نرسم باستمرارٍ) تكشف ذلك الأمر. كانت رسومه سُفُنًا وقطارات ومعارك، أمَّا صوري أنا، فإذا لم تكن تقليدًا لما يرسمه، كانت حيوانات ترتدي ملابس- الحيوانات المُصَوَّرة في صورة بشر بحسب ثقافة الحضانة. كانت أوائل القصص التي كتبها- فبوصفه أخي الأكبر، كان قد سبَقَني في الانتقال من مرحلة الرسم إلى مرحلة الكتابة- كانت بعنوان "المهراجا الصغير". فهو كان قد جعل من الهند "بلده"، أمَّا أولى القصص التي كتبتُها أنا فكانت بعنوان أرض الحيوانات. لا أعتقد أنَّ أيًّا من الصور التي لا تزال موجودة تعود إلى تلك السنوات الأولى، لكنْ لا يزال لديَّ الكثير من الصور التي يعود تاريخها إلى وقت ليس بعد ذلك بكثير. بواسطة هذه الصور، يبدو لي أنَّ موهبتي في الرسم كانت أفضل. مُنذ سنٍّ باكرة، كُنتُ أستطيع رسم الحركة- شخصيَّات تبدو كأنَّها بالفعل

تجري أو تُقاتل- كما أنَّ المنظور كان جيِّدًا أيضًا. لكن لم يوجد، سواء في أعمالي أم أعمال أخي، أيُّ خطٍّ رُسِمَ استجابةً لأيَّة فكرة جماليَّة، حتَّى وإن كانت فَجَّة. كانت هناك حركة وفكاهة واختراع، لكن ليست هناك أيَّة جرثومة لجمال التصميم أو الشكل. كانت الأشجار ككُريَّات من الصوف المنتوف موضوعة على أعمدة، ولم يوجد أيُّ ما يدُلُّ على أنَّ لدينا أدنى معرفة بشكل الأوراق التي كانت تملأ الحديقة التي كُنَّا نلعب فيها كلَّ يوم تقريبًا. لقد كان غياب الجمال، كما أتأمَّل الآن، سِمةً مُميَّزة من سمات طفولتنا. لم تكُن هناك صورٌ على جدران بيت أبي تجذب انتباهنا أو تستحقُّه في واقع الأمر. لم نرَ قطُّ مبنًى جميلًا ولا تصوَّرنا أنَّ بيتًا يُمكن أن يكون جميلًا. لم تكن أولى خبراتي الجماليَّة، إن كانت جماليَّةً فعلًا، من ذلك النوع الشكليّ، بل كانت من النوع الرومانسيِّ بشدَّة. ذات مرَّة في تلك الأيَّام الباكرة، أحضَرَ أخي معه إلى الحضانة غطاءَ علبة مخبوزات كان قد غطَّاه بالطحالب، وزيَّنه بالأغصان والأزهار لكي يجعله أشبَه بحديقة أو غابة نضعُ فيها نماذجنا الصغيرة. لقد كان ذلك أوَّل منظر جماليٍّ عرفتُه. فما فشلَتِ الحديقةُ الحقيقيَّةُ أن تفعله، فعلَتْه هذه الحديقة اللعبة. لقد جَعَلَت لديَّ وعيًا بالطبيعة- ليس بوصفها مستودعًا للأشكال والألوان، بل بصفتها شيئًا نَديًّا وباردًا وطازَجًا ومُفعمًا بالحياة. لا أعتقد أنَّ ذلك الانطباع كان مهمًّا جدًّا في ذلك الوقت، لكن سرعان ما أصبح مُهمًّا في ذاكرتي. فمهما عِشتُ، ستظلُّ صورتي الذهنيَّة عن الجنَّة تحتفظ بشيء من شكل الحديقة اللعبة التي صنعها أخي.

وفي كلِّ يوم، كان هناك ما كنَّا نسمِّيه "التلال الخضراء"، وهو الخطُّ السُّفلي لتلال كاسلري (Castlereagh Hills) التي كنَّا نراها من نوافذ الحضانة. لم تكن بعيدة جدًّا، لكنَّها كانت كذلك لنا نحن الأطفال. لقد تعلَّمتُ منها معنى الاشتياق والتَّوق إلى ما هو صَعب المنال. لقد جعلَتْني، لحُسن الطالع أو سوئه؛ وقبل أن أصل إلى سنِّ السادسة، بالغَ الإعجاب بالزَّهرة الزرقاء[٣].

إذا كانت الخبرات الجماليَّة نادرة، فالخبرات الدينيَّة لم تحدث بتاتًا. لقد حصل بعض الأشخاص، من كُتُبي، على الانطباع أنِّي تربَّيتُ في بيئة دينيَّة متزمِّتة، لكنَّ هذا ليس صحيحًا البتَّة. لقد تعلَّمت الأشياء المُعتادة، وتعلَّمت أن أتلو صلواتي والذهاب إلى الكنيسة في وقتٍ مُحدَّد. لقد قبلتُ قبولًا طبيعيًّا ما قيل لي، لكنَّني لا أستطيع أن أتذكَّر أنِّي شعرتُ بالكثير من الاهتمام بما سمعت. كان أبي أبعد ما يكون عن التزمُّت، وكان "عاليًا" بمقاييس القرن التاسع عشر ومقاييس الكنيسة الإيرلنديَّة، وكانت مقاربتُه للدِّين، كما للأدب، على طرف النقيض ممَّا قد صارت مُقاربتي في ما بعد. كان سحرُ التقليد والجمالُ الأدبيُّ للكتاب المقدَّس وكتاب الصلاة (التي كنتُ أحسبُها ذائقةً متأخِّرة ومُكتسبة) مُتعتَه الطبيعيَّة، وكان من الصعب إيجاد شخص على القدر نفسه من الذكاء، يهتم هذا الاهتمام الضئيل بأمور ما وراء

٣) الزهرة الزرقاء هي رمزٌ إلى الحركة الرومانسيَّة الألمانيَّة، ويُنظَر إليها على أنَّها المقصِدُ الذي لا يُبلَغُ (الناشر).

الطبيعة. ومن جهة تديُّن أمِّي، فلا يُمكنني أن أقول شيئًا من ذاكرتي. لقد كانت طفولتي على وجه العموم، بعيدة عن أن تكون روحيَّة. وباستثناء الحديقة اللعبة والتلال الخضراء، فهي لم تكن خياليَّة أيضًا. تُمثِّل الطفولة في ذاكرتي زمنًا من السعادة الروتينيَّة العاديَّة، ولا تثير فيَّ ذلك الحنين اللاذع الذي أتذكَّر به صبايَ الأقلَّ سعادةً، ليست سعادة قائمةً مستقرَّة، بل فرحٌ لَحِظِيّ يُمَجِّدُ الماضي.

كان هناك استثناءٌ واحدٌ لتلك السعادة العموميَّة؛ فأنا لا أتذكَّر شيئًا أبكَرَ من رُعب بعض الكوابيس بالتحديد؛ فهو اضطرابٌ متواتِرٌ حدوثه في تلك السنِّ، لكنَّه يظلُّ غريبًا، لا سيَّما في طفولة محميَّة مثل طفولتي، أن تنفتح فيها كثيرًا نوافذ كهذه تطلُّ على ما يكاد يُشبه الجحيم. كانت كوابيسي من نوعَين: الأوَّل مختصٌّ بالأشباح والثاني بالحشرات. كان الثاني، بلا أدنى مُقارنة، هو الأسوأ، وحتَّى اليوم، أُفَضِّلُ أن أقابِلَ شَبحًا على أن أقابِلَ عنكبوتًا. وإلى هذا اليوم يمكنني أن أجد في قلبي ما يعلِّلُ هذا الرُّهاب. وكما قال أوين بارفيلد (Owen Barfield) ذات مرَّة: "المشكلة في الحشرات أنَّها مثل القاطرات الفرنسيَّة؛ إذ إنَّ كلَّ ما فيها من **شُغل** هو من الخارج". والمقصود بكلمة "شُغل" هنا هو المشكلات. أطرافها المعقوفة، وحركتها المتشنِّجة السريعة، وأصواتها الجافَّة المعدِنيَّة- كلُّها تُشبه المعدَّات التي دبَّت فيها الحياة، أو الحياة التي تحوَّلت إلى مجرَّد آلات. ويُمكنك أيضًا أن تُضيف أنَّنا في خليَّة النحل أو مملكة النمل، نرى تمامًا الأمرَين اللذين نخشى على فصيلتنا البشريَّة منهما: سيادة الأنثى

وسيادة الجماعة. ولعلَّ أحد الحقائق بشأن تاريخ هذا الرُّهاب تستحقُّ التسجيل أيضًا؛ فبعد ذلك بوقت طويل، في سنوات مراهقتي، وجرَّاء قراءة كتاب لوبوك (Lubbock) "**النمل والنحل والدبابير**" (Ants, Bees and Wasps) نَما لديَّ لوقت قصير اهتمامٌ علميٌّ أصيل بالحشرات. وسرعان ما زاحمَتْه دراسات أخرى، لكنْ في الوقت الذي كنتُ مُهتمًّا فيه بدراسة الحشرات، كاد رُهاب الحشرات أن يتلاشى، ممَّا جعلني أميلُ إلى الاعتقاد أنَّه قد تكون للفضول الموضوعيِّ الحقيقيِّ ذلك التأثيرَ العلاجيَّ.

وأخشى أنَّ المختصِّين بعلم النفس لن يرضوا بذلك التفسير البسيط لرُهاب الحشرات الذي كان سائدًا في ذلك الجيل البسيط: أنَّ السبب هو صورة مُنفِّرة لحشرة في أحد كُتُب الحضانة. كانت هذه الصورة لطفل قصير، كعُقلة الإصبع مثلًا، يقف على عشِّ الغُراب (الفطر) ويتعرَّض للتهديد من خنفساء أكبر كثيرًا من حجمه. كان ذلك سيِّئًا بما يكفي، لكنْ لا يزال هناك ما هو أسوأ. كانت قرون الخنفساء شرائط من الورق المقوَّى مُنفصلة عن الورقة المسطَّحة وتتحرَّك على مِفصل. وبتحريك هذه الأداة الشيطانيَّة الغريبة، يمكنك أن تجعلَ هذه القرون تفتح وتغلق مثل الكماشة. أكاد أراها الآن وأنا أكتب. أمَّا كيف سمحت أمِّي، الحكيمةُ عادةً، بمثل هذه الصورة الشرِّيرة أن تدخل الحضانة، فهذا أمر يصعب فهمه. إلَّا إذا كانت هذه الصورة (الآن يتَسَلَّلُ إليَّ الشكّ) هي نفسها غير واقعيَّة، وليست سوى نتاج أحد كوابيسي. لكنْ لا أظنُّ ذلك.

في عام ١٩٠٥م، عندما بلغتُ السابعة، حدث أوَّل تغيير كبير في حياتي؛ فقد انتقلنا من بيتنا إلى بيت آخر. قَرَّرَ أبي، الذي كان نجاحه يزداد كما أظنُّ، أن يترك تلك الڤيلا شبه المنفصلة التي وُلِدتُ فيها، وبنى لنفسه بيتًا أكبر كثيرًا، أبعد في اتِّجاه الريف. كان هذا "البيت الجديد"- الذي ظللنا نُسمِّيه هكذا لسنوات عدَّة- كبيرًا حتَّى بالمقاييس الحاليَّة. ولطفل صغير كان أشبه بالمدينة منه بالبيت. كان أبي، القابل للخداع أكثر من أيِّ إنسانٍ قابلته، تعرَّض للخداع من جانب البنَّائين؛ فكانت مصارف المياه خاطئة، والمداخن خاطئة، وكان هناك إصلاحات في كلِّ غرفة. لكنْ لم يكُن كلُّ هذا مهمًّا لطفل. وما كان مهمًّا عندي هو أنَّ خلفيَّة حياتي صارت أكبر. يكادُ يكونُ ذلكَ البيت الكبير، شخصيَّة أساسيَّة في قصَّتي. فأنا نتاج رُدهاتٍ طَويلة، وغُرفٍ كبيرة فارغة يُنيرها ضَوءُ الشمس، وصمتٌ داخليٌّ مُرعِبٌ في الطابق العلويّ، وغُرَف أستكشفها بمفردي، وضَوضاء تأتي من بعيد من غَرغَرة صهاريج المياه والمواسير، وصوت الرياح تُصفِّرُ تحت البلاط. وأيضًا الأعداد الهائلة من الكُتُب. لقد كان أبي يشتري كلَّ الكُتب التي يقرأها ولم يتخلَّص من أيٍّ منها. لقد كانت هناك كُتُبٌ في غرفة المكتب، وفي غرفة الضيوف، وفي غُرفة المعاطف، وفي رفوف الكُتُب الكبيرة عند الدَّرج، وكُتُب مُكدسة بارتفاع كتفي في غُرفة الصهريج العلويَّة- كُتُب من كلِّ نوع تعكس كلَّ مرحلة عابرة من مراحل اهتمامات والديَّ، كُتُب قابلة للقراءة

وأخرى غير قابلة للقراءة، كُتُب مُناسبة لطفل، وكُتُب غير مناسبة بكلِّ تأكيد. لم يكن هناك ممنوع. في الأمسيَّات الطويلة المطيرة، كُنتُ آخذ كتابًا تلو الآخر من الأرفف. لقد كنتُ واثقًا بوجود كتاب جديد لي، مثلما يثقُ مَن يخطو داخل حقل بأنَّه سيجدُ ورقة نجيل جديدة. أمَّا أين حُفظَتْ كلُّ هذه الكُتُب قبل أن نأتي إلى ذلك البيت الكبير، فهي مُعضلة لم تخطُر ببالي حتَّى بدأت كتابة هذه الفقرة. لا أدري الإجابة.

وخارج البيت كانت "إطلالة" التي كان موقعها بلا شكٍّ مُختارًا بعناية. فعند الباب الأماميّ، كان البيت يُطلُّ عبر حقول واسعة، على بحيرة بلفاست، وخلفها كان خطُّ الجبال العالية على شاطئ أنتريم (Antrim Shore)– ديڤيز (Divis)، وكولن (Colin)، وكايف هِل (Cave Hill) لقد كان ذلك في الأيَّام الغابرة التي كانت فيها بريطانيا صاحبة الأسطول البحريِّ الأكبر في العالم، وكانت البحيرة تعجُّ بالسُّفن، وكان هذا يحمل السعادة لنا نحن الأطفال، لكنَّها كانت سعادةً أكبر لأخي الأكبر. لا يزال صَوتُ نفير السُّفُن ليلًا يوقظُ كلَّ ذكريات طفولتي. وخلفَ البيت كانت تلال هوليود (Holywood Hills) الأكثر اخضرارًا، والأقرب من جبال أنتريم، لكنَّها لم تلقَ الانتباه إلَّا في وقتٍ متأخِّر. أمَّا الجهة الشماليَّة الغربيَّة، فكان هناك ما يهمُّ: مشهد غروب شمس الصيف خلف التلال الزرقاء والغربان في طريقها إلى أعشاشها. في هذه البيئة بدأت ضربات التغيير تَقَعُ على حياتي.

أوَّلًا، أُرسِلَ أخي الأكبر إلى مدرسة داخليَّة إنكليزيَّة، وهكذا انتُزِعَ من حياتي على مدى الجزء الأكبر من السنة. ما زلتُ أتذكَّر نشوةَ عودته إلى البيت في العطلة، لكنِّي لا أتذكَّر في المُقابل مشاعر الألم عند فراقه ذاهبًا إلى المدرسة. لم تُحدِثْ حياتُه الجديدة فرقًا في علاقاتنا. وأنا، في هذه الأثناء، كُنتُ مستمرًّا في تعلُّمي في البيت: الفرنسيَّة واللاتينيَّة من أمِّي، وكلُّ شيء آخر من معلِّمتي الممتازة آني هارپر (Annie Harper). لقد كنتُ في ذلك الوقت أرى تلك السيِّدة المهذَّبة صغيرة الحجم وحشًا، غير أنَّ كلَّ ما أستطيع تَذَكُّرَه يؤكِّدُ لي أنِّي لم أكن عادلًا في هذا. كانت سيِّدةً إنجيليَّة مشيخيَّة، وأتذكَّر أنَّ تلك المحاضرة الطويلة التي أقحمَتْها وسط دروس الرياضيَّات، كانت من أوائل الأشياء التي فتحَتْ العالم الآخر أمام عقلي بقدر من الواقعيَّة. لكنَّ هناك أمورًا كنتُ أفكِّر فيها أكثر. حياتي الحقيقيَّة- أو ما تختزنه الذاكرة على أنَّه حياتي الحقيقيَّة- كانت تميل إلى العزلة. كان لديَّ في الواقع كثير من الناس أتكلَّم معهم: والديَّ، وجَدِّي لِويس الذي هَرِمَ قبل الأوان وفقدَ سمعه، وكان يعيش معنا، والخادمات، والبُستانيِّ العجوز الشِّرِّيب إلى حدٍّ ما. لقد كُنتُ، بحسب اعتقادي، ثرثارًا كبيرًا، لكنَّ العزلة كانت أيضًا مُتاحة لي، في مكان ما في الحديقة أو البيت. لقد تعلَّمتُ في ذلك الوقت الكثير من الأمور التي أعملُها بمفردي.

وما دفعني إلى الكتابة كان نقصَ براعتي الشديد في الأمور اليدويَّة، وأنا أُرجِع ذلك إلى عَيبٍ خَلْقيٍّ ورثناه أنا وأخي عن والدنا؛

فلدينا في الإبهام مِفصلٌ واحد، أمَّا المِفصل الأعلى (الأبعد من الظُّفر) موجود شكلًا فقط، فنحن لا نستطيع ثنيه. لكنْ أيًّا كان السبب، فالطبيعة وضعَتْ عليَّ من الولادة عجزًا تامًّا أن أفعلَ أشياءَ معقَّدة بيديَّ. أمَّا الأقلام فكنتُ قادرًا على استخدامها، وما زلت أُحسِنَ وَضْعَ ربطة العنق. أمَّا من جهة الآلات والأسلحة، ووصلات الأكمام، والمفكَّات، فقد كنتُ دائمًا غير قابل للتعلُّم. لقد كان هذا ما دفعني إلى الكتابة. لقد كنتُ أشتاق لأنْ أصنع أشياءَ وسُفُنًا وبيوتًا ومُحرِّكات. كَم من الورقِ المُقوَّى والمقصَّات أفسدتُ! وتنتهي محاولاتي الفاشلة دائمًا بالبُكاء. لذلك شعرتُ بأنَّ الحلَّ الأخيرَ هو أن أنتقلَ إلى كتابة القصص بدلَ ذلك؛ لأضيفَ القليل من الحُلُم إلى عالمي السعيد. لقد أدركتُ أنِّي أستطيعُ أن أَفعَلَ الكَثير بقلعة خياليَّة في قصَّة، أكثر جدًّا ممَّا أستطيع أن أفعله بقلعة من الورق المقوَّى لم أستطع قطُّ أن أصنعها وأجعلَها تستقيمُ فوق منضدة الحضانة.

وسرعانَ ما راهنتُ على الاستيلاء على إحدى الغُرف العلويَّة، وجعلتُها "مكتبي". وعلى الجُدران علَّقتُ صورًا من رَسمي، أو صورًا ميلاديَّة مُلوَّنة من بعض المجلَّات. وهناك وضعت قلمي وإناء الحبر الصغير والكُرَّاسات التي أكتب فيها وصندوق ألواني.

أيَّ سعادَة يُصيبُ المرءُ
أكثر من أن يتلذَّذ بالحرِّيَّة؟

هُناك كتَبتُ أولى قصصي، ورسمتُ صوَرَها، بمقدارٍ كبيرٍ من الرِّضى. لقد كانت محاولات للجمع ما بين لذَّتيَّ الأدبيَّتَين الرئيستَين: "الحيوانات التي تلبس كالبشر" و "الفُرسان المُدَجَّجين بالسلاح". ونتيجةً لذلك، كَتَبتُ عن الفئران الشُّجاعة، والأرانب التي تعتمر الدروع الكاملة لتقتل، لا العمالقة، بل القطط. لكنَّ مزاجي المُنظَّم كان لا يزال قويًّا- المزاج الذي كان يقود ترولوپ كي يستَفيض في وَصْف مدينته بارستشاير (Barsetshire).

كانت الكتابة في روايتي "**أرض الحيوانات**" تنشط في العُطل عندما يعود أخي إلى البيت. وكان ينبغي، لكي يشترك أخي فيها، أن تكون أرض حيوانات حديثة فيها قطارات وسُفُن بخاريَّة. لذا كانت أرض الحيوانات التي كنتُ أكتب عنها والمُنتمية إلى العصور الوُسطى، هي الأرض نفسها التي شاركتُها مع أخي، في المرحلة الباكرة من طفولتنا. ودون شكٍّ كان ينبغي أن ترتبط الحِقبتان. وقادَني هذا من الكتابة الرومانسيَّة إلى التاريخيَّة؛ فبدأت أكتب تاريخًا متكاملًا لأرض الحيوانات. ومعَ أنَّه وُجِدَتْ أكثر من نسخة من هذا العمل التعليميِّ، فإنِّي لم أنجح في إحضاره إلى العصر الحديث؛ فالقرون الطويلة تحتاجُ إلى الكثير من الملء بالتفاصيل، لا سيَّما إذا كانت كلُّ الأحداث تأتي من ذهن المؤرِّخ. لكنَّ هناك لمسةً في ذلك **التاريخ** ما زلتُ أذكُرُها بالفخر، وهي المغامرات الجسورة التي ملأت قصصي بصورة خفيفة، وكُنتُ أُحَذِّر القارئ أنَّها ربَّما تكون "مجرَّد أساطير". وبصورةٍ ما- لا

يعلمُها إلَّا الله- أدركتُ حتَّى في ذلك الوقت أنَّ على المؤرِّخ أن يتبنَّى تَوَجُّهًا ناقدًا في ما يتعلَّق بموادِّ الملحَمة التي يكتبها. ومن التاريخ، كانت هناك خطوة بسيطة لنصلَ إلى الجغرافيا. وسرعان ما كانت هناك خريطة لأرض الحيوانات- بل كانت هناك في الواقع خرائط عدَّة، كلُّها مُتَّسقة معًا على نحوٍ مقبول. وكان ينبغي أيضًا أن تكونَ أرض الحيوانات مرتبطة جغرافيًّا بالهند التي كان أخي مفتونًا بها. ومن ثَمَّ نُقِلَتِ الهند من مكانها الطبيعيِّ. جعلناها جزيرة، يسيرُ شاطئُها الشماليُّ خلف جبال الهيملايا بينها وبين أرض الحيوانات، وسرعان ما اخترع أخي المساراتِ الرئيسةَ للسُّفُن البخاريَّة. وهكذا صارَ هناك عالمٌ متكاملٌ، وخريطة لذلك العالم استخدَمْتُ فيها كلَّ الألوان الموجودة في علبة ألواني. وكنَّا نحسبُ كلَّ أجزاء ذلك العالم ملكًا لنا، وقد كانت أرض الحيوانات والهند تزدحمان مع الوقت بالمزيد من الشخصيَّات.

من بين الكُتُب التي كنتُ أقرأها في ذلك الوقت، القليل جدًّا لم أعد أذكره، لكنْ لم تَحظَ كلُّها باستمرار محبَّتي. لم أشعر مثلًا بالرغبة في إعادة قراءة كتاب دونان دويل (Donan Doyle) "**السِّير نايجل**" (Sir Nigel)، وهو أوَّل الكتب التي فتحت البابَ أمامَ خيالي للتفكير في "الفُرسان المُسلَّحين". أيضًا لا أميل كثيرًا الآن لأنْ أقرأ كتاب مارك توين "**أميركيٌّ في بلاط الملك آرثر**" *(Yankee at the Court of King Arthur)* الذي كان في ذلك الوقت مصدري الوحيد عن قصَّة الملك آرثر، والذي كُنتُ أقرأه بنشوة من أجل العناصر الرومانسيَّة التي كانت فيه دون

أن أهتمَّ كثيرًا بالسخرية المُبتذلة التي كانت تُوَجَّه إلَيهم. كان الأفضل من كلا هذَين الكتابَين هو ثلاثيَّة إي. نسبِت (E. Nesbit)، وضمَّتْ: "**هي وخمسة أطفال**" *(Five Children and It)*، و"**العنقاء والبساط**" *(The Phoenix and the Carpet)* و"**قصَّة التميمة**" *(The Story of the Amulet)*، والأخير بالتحديد أثرَّ فيَّ أيَّ أثر. هذه الكُتُب هي أوَّل ما فتح عينيَّ على العالم القديم؛ "الظُّلمة الخلفيَّة والهُوَّة الزمنيَّة السحيقة".

لذا يُمكنني أن أُعيد قراءتها بسعادة. وكانت قصَّة "**غوليفر**" *(Gulliver)* كتابًا كاملًا ملآنًا بالصُّور التوضيحيَّة، وكان من كُتُبي المُفَضَّلة، وكُنتُ أنكَبُّ بلا توقُّف على مجموعة شبه كاملة من أعداد مجلَّة "**القبضة**" (Punch) القديمة التي كانت موجودة في مكتبة أبي. كما أنَّ تانييل (Tenniel) كان يُشبع ولعي "بالحيوانات التي ترتدي الملابس كالبشر" بما فيها الدبُّ الروسيّ، والأسدُ البريطانيّ، والتمساحُ المصريّ، وغير ذلك. في حين أكَّدَتْ معالجتُه الفوضويَّة والسطحيَّة نقائصي من جهة إهمال الاهتمام بالشكل. ثمَّ جاءت كُتُب بيتركس پوتر (Beatrix Potter)، حيث ظهرَ أخيرًا الجمال الشكليّ.

لقد كان من الواضح أنِّي في ذلك الوقت– ما بين السادسة والثامنة– كنتُ أعيش في خيالي على نحو شبه كامل، أو على الأقلِّ، بدَتْ لي الخبرة الخياليَّة لتلك السنوات الآن أهمَّ من أيِّ شيء آخر. لذلك فعندما أمرُّ في ذاكرتي بعطلةٍ أمضيتُها على شاطئ نورماندي (التي أتذكَّرها بوضوح بالغ)، فإنِّي لا أُلقي لها بالًا، وإنْ كانت تُقتَطع من ماضيَّ تمامًا، فسأظلُّ

أنا الإنسان نفسه بلا أدنى تغيير. لكنَّ **التخيُّل** كلمة غامضة، لذا عليَّ أن أُجرى بعضَ التوضيح والتفريق. ربَّما يعني التخيُّل عالمًا من أحلام اليقظة، أو تحقيق أمنية خياليَّة. وأنا أعرفُ عن ذلك الأمر أكثر ممَّا يكفي. لقد كنتُ أتخيَّل نفسي مرارًا استخدم المقصَّات ببراعة وأقصُّ شخصيَّة من الورق المقوَّى. لكنْ يجب أن أؤكِّدَ أنَّ هذا أمر يختلف تمامًا عن اختراع عالم الحيوانات. لم يكن عالم الحيوانات تحقيق أمنية خياليَّة عندي؛ إذ لم أكن بتاتًا شخصيَّةً من شخصيَّات القصَّة. لقد كنتُ، أنا المُبدِعَ، خارجَها تمامًا. يختلف الاختراع تمامًا عن الحُلم. وإذا لم يستطع أحد التفريق فذلك لأنَّه لم يختبر كلَيهما، أمَّا كلُّ مَن اختبرهما، فيفهم ما أقول. في أحلام يقظتي كُنتُ أُدرِّب نفسي أن أكون أحمقَ، أمَّا في تخطيط جَغرافيَّةِ أرض الحيوانات وتاريخها، فكنتُ أُدرِّب نفسي أن أكون روائيًّا. لاحظ جيِّدًا: روائيًّا لا شاعرًا. إنَّ العالم الذي اخترعته كان ملآنًا (بحسب رأيي) بالاهتمام والنشاط والفكاهة والشخصيَّات، لكن لم يكن هناك شِعرٌ فيه ولا رومانسيَّة. لقد كان اعتياديًّا على نحوٍ مُذهل.[٤] لذلك فإنْ كنَّا نستخدم كلمة **خيال** بمفهوم ثالث، والمفهوم الأعلى تمامًا، فإنَّ هذا العالم الذي اخترعته لم يكُن خياليًّا. لكنَّ خبراتٍ أخرى يُمكن أن تكون خياليَّة، وسأحاول الآن تسجيلها. هذا فَعَله بصورة أفضل تراهيرن (Traherne) ووردزورث (Wordsworth)، لكنَّ على كلِّ إنسان أن يحكيَ قصَّتَه.

---

٤) أفضلُ طريقة للتعبير عن هذا الأمر، لَمَنْ قرأوا كتب الأطفال من تأليفي، يمكن أن يكون بالقول إنَّ أرضَ الحيوانات لا تشبه بأيَّة حال من الأحوال عالم نارنيا إلَّا من حيثُ الحيوانات التي تأخذ شخصيَّات شبه إنسانيَّة. كانت أرض الحيوانات، من حيثُ نوعيَّتُها، خالية من أيَّة إشارة إلى العجائب والغرائب.

اللمحةُ الأولى هي في ذاتها ذِكرى لذِكرى. كنتُ أقفُ بجانب شجَيرةِ توتٍ كِشْمش مُزهِرة في نهارٍ صيفيٍّ، وإذا بذِكرى ذلك الصباح الذي فيه أَحضَر أخي حديقتَه اللعبة إلى الحضانة تظهرُ فيَّ دون سابق إنذار، كما لو كانت من عمق قرونٍ وليس مجرَّد السنين. من الصعب العثور على كلمات قويَّة بما يكفي لتصف الإحساس الذي انتابني. لعلَّ ما يُعبِّر عنه ميلتون بمصطلح "النشوة الغامرة" لِجَنَّة عَدْن (مع العلم بالمعنى الكامل والقديم لكلمة "غامرة") يقترب بصورةٍ ما. لقد كان إحساسًا بالرغبة، لكنِ الرغبة في ماذا؟ بالتأكيد ليس رغبةً في غطاء علبة مخبوزات مُغطَّاة بالطحالب، أو حتَّى في عودة الماضي (رُغمَ أنَّه يأتي مُتضمَّنًا فيها). ورُغمَ أنِّي أردتُ ذلك بشدَّة، وقبل أن أعرفَ ما كنتُ أريده، فإنَّ الرغبة نفسها اختفت، واللمحة انزوَت، وعاد العالم مُعتادًا كما كان، أو فقط كانت قد أثارته رغبة في الرغبة التي اختفَتْ توًّا. لقد استغرق الأمر مجرَّد لحظة من الزمن، وبصورةٍ ما، فإنَّ كلَّ شيء آخر حدث لي، كان غير مهمٍّ بالمقارنة.

اللمحة الثانية جاءت بواسطة كتاب "**السِنجاب نَتكين**" *(Squirrel Nutkin)*، وبواسطته فقط، ومع أنِّي أحبُّ كلَّ كُتب بيتريكس پوتر، فإنَّ الكُتُب الأخرى كانت مُجرَّد تسلية مقارنة بهذا الكتاب الصادم. وقد أصابني بالاضطراب بسبب ما يمكنني أن أصفَه بأنَّه فكرة الخريف. يبدو غريبًا أن يُصبِحَ إنسانٌ مُتَيَّمًا بفصلٍ من فصول السنة، لكنْ هذا ما حدث، وكما في السابق، كانت التجربة رغبةً شديدة. عُدتُ إلى

الكتاب لا لأحقِّق هذه الرغبة (لقد كان ذلك مستحيلًا؛ فكيف يُمكن أن يمتلكَ المرء الخريف؟) لكنْ رُبَّما لأعيد إيقاظها. وفي هذه الخبرة أيضًا كانت المفاجأة نفسها والإحساس ذاته بالأهمِّيَّة غير القابلة للحساب. لقد كان شيئًا مختلفًا عن الحياة العاديَّة، وحتَّى عن المتَع العاديَّة- شيئًا يُمكن أن يُوصَفَ الآن بأنَّه "في بُعد آخر".

اللمحة الثالثة جاءت بواسطة الشِّعر. لقد أعجبتُ بكتاب لونغفلو (Longfellow) بعنوان "**ملحمة الملك أولاف**" *(Saga of King Olaf)* وكنتُ معجبًا بصورة اعتياديَّة سطحيَّة بقصَّتها وإيقاعَها المُفعم بالحيويَّة. لكنْ في ذلك الوقت وبصورة مختلفة عن هذه المُتع، ومثل الصوت الآتي من بعيد، جاءت لحظةٌ قَلَبتُ فيها الصَّفحات بإهمال، ووجدتُ الترجمة غير المقفَّاة لقصيدة **تينغر دراپا** (Tigner Drapa):

"سمعت صوتًا ينادي
بولدر الجميل مات،
لقد مات".

لم أكن أعرف شيئًا عن بولدر، لكنِّي شعرتُ فَورًا كأنِّي أرتفع فوق السماء الشماليَّة. لقد رغبتُ بشدَّة تكاد تصيبني بالدُّوار في أمرٍ لا يُمكن وصفه (أهو بارد أم واسع أم شديد أم شاحب أم بعيد؟) ثمَّ كما في الأمثلة الأخرى، وجدتُ نفسي في تلك اللحظة عَينِها أسقطُ من تلك الرغبة، وأتمنَّى لو أمكنني أن أعود إليها.

القارئ الذي لا يجدُ في هذه الوقائع الثلاثة أيَّ شيء يُهِمُّهُ، لا يحتاجُ لأنْ يستمرَّ في قراءة هذا الكتاب؛ لأنَّ القصَّة المحوريَّة لحياتي لا تدور عمومًا حول شيء آخر. أمَّا لأولئك الذين ما زالوا يميلون إلى مواصلة القراءة، فسأحدِّد فقط السِّمةَ المشتركة ما بين هذه الخبرات الثلاث. إنَّها رغبة غير مُشبَعة هي في ذاتها مرغوبٌ فيها أكثر من أيِّ إشباع. وأنا أسمِّيها الفرح، وهو هنا تعبير تقنيٌّ يجب أن يُفرَّقَ بوضوح تامٍّ بينه وبين السَّعادة واللذَّة. للفرح (بمفهومي) في واقع الأمر سِمَة واحدة، وواحدة فقط، يشترك فيها مع هذه الخبرات، وهي أن مَن يختبره سيريده مرَّة أخرى. وبخلاف ذلك، فقط من حيثُ النوعيَّة، ربَّما يكاد يُسمَّى الفرح أيضًا نوعًا ما من الحُزن والأسى. وأشكُّ في أنَّ أحدًا سبقَ أن تذوَّقه، يستطيعُ أن يستبدلَ به كلَّ الملذَّات التي في العالم. لكنْ يظلُّ الفرح أمرًا ليس في مقدورنا أن نصنعه، على خلاف اللذَّة التي نستطيع ربَّما أن نصنعها.

لا يُمكنني أن أكون واثقًا ثقةً تامَّةً إنْ كانت الأمور التي أتكلَّم عنها قد حدثت قبل الفَقد الكبير أو بعده، وهذا الفقد حلَّ بأسرتنا ويجب أن أتناوله الآن.

لقد جاءت ليلة كُنتُ فيها مريضًا أبكي بسبب الصُّداع وألم الأسنان وكُنتُ متضايقًا لأنَّ أُمِّي لم تأتِ إليَّ؛ لأنَّها هي أيضًا كانت مريضة، والغريب أنَّ الكثير من الأطبَّاء كانوا في غرفتها، وأصوات وأشخاص يأتون وآخرون يغادرون يملأون المنزلَ والأبوابَ تُغلَق وتُفتح.

ويبدو أنَّ هذا استمرَّ مدَّة ساعات. ثمَّ جاء أبي دامعًا إلى غرفتي، وراحَ يحاولَ أن ينقُلَ إلى عقلي المُرتَعِب أمورًا لم يستقبلها ذلك العقل من قبلُ. لقد كان السرطانُ قد أخذَ مساره، ثمَّ جراحة (كانوا يُجرون الجراحة في بيوت المرضى في تلك الأيَّام)، ثمَّ ما بدا كأنَّه فترة نقاهة، وعودة جديدةٌ للمرض، والألم يزداد، ثمَّ وقعَ الموت. لم يتعافَ أبي من هذا الفقد تمامًا.

أعتقد أنَّ الأطفال لا يُعانون أقلَّ من الكبار؛ فالأمر عندنا، نحن الأطفالَ، أنَّنا اختبرنا فقدَ أُمِّنا قبل أن تموت. لقد فقَدْناها بالتَّدريج حيثُ صارت منعزلةً على نحوٍ متزايد، ومُنسحبةً من حياتنا لتُصبح بين أيادي المُمرِّضات وفي نوبات من الهذيان إثرَ حَقْنِها بالمورفين، فتحوَّلتْ إلى شيء غريب ومخيف، كما أنَّ البيت صارَ ملآنًا بروائح غريبة وضوضاء في منتصف الليل وحوارات هامسة مشؤومة. وكان لذلك نتيجتان لهما آثارٌ بعيدة المدى: إحداهُما شرِّيرة جدًّا، وأخرى صالحةٌ جدًّا. النتيجة السيِّئة هي أنَّنا ابتعدنا عن أبينا. يقولون إنَّ الاشتراك في الحزن يُقَرِّب الناس بعضهم من بعض، لكنِّي أكاد لا أُصدِّق أنَّ للحزن هذا التأثير نفسَه عندما يكون الفارق في العُمر كبيرًا بين مَن يختبرون الحزن. إذا كان لي أن أثق بخبرتي الشخصيَّة، فإنَّ رؤية الراشدين في بؤس ورُعب لها تأثير في الأطفال يُصيبهم بالشلل والاغتراب. ويجعلُ هذا الأطفال يعتقدون أنَّهم السبب، فإذا كانوا أطفالًا أفضل، لربَّما استطاعوا أن يخفِّفوا عن أبيهم. لم تَعُدْ أعصابه ثابتة، ولم يَعُدْ قادرًا

على إدارة مشاعره. تحت ضغط القلق صارت عصبيَّته غير محسوبة. كان يتكلَّم بطريقة مبالغ فيها ويتصرَّف بلا عدل. لذلك، فبواسطة قسوة غريبة من جانب الأقدار، كان ذلك الرجل التعيس قد فقدَ ليس فقط زوجته، بل ولدَيه أيضًا.

لقد أصبحنا أنا وأخي نعتمد أكثر فأكثر بعضنا على بعض في كلِّ ما كان يجعل الحياة مُحتملة، وصرنا نثقُ فقط بعضنا ببعض. وإنِّي لأتوقَّع أنَّنا (أو أنا تحديدًا) كنَّا نتعلَّم أن نكذبَ عليه. كلُّ ما كان يجعل المنزل بيتًا قد خَذَلَنا، ولم يبقَ لنا إلَّا بعضنا بعضًا. فاقتربنا أكثر فأكثر يوميًّا (كانت هذه هي النتيجة الجيِّدة)–مثل قنفذَين مُرتَعِبَين التَصَقا طلبًا للدِّفء في هذا العالم الكئيب.

تُضاعِفُ مآسٍ أُخرى حُزن الفقد لدى الأطفال؛ فقد أخذوني إلى غرفة النوم التي ماتت أُمِّي فيها، لكي "أراها"، كما يقولون. وعندما ذهبت لأراها، أدركتُ أنِّي أرى "شيئًا" وليس شخصًا. لم يكُن فيها ما قد يُسمِّيه الراشدون تَشَوُّهًا، إلَّا ذلك التشوُّهُ الكامل المتمثِّل في الموت نفسه. هذا ملأ حُزني رعبًا. إلى هذا اليوم لا أفهم القصدَ من قَولِ إنَّ جسدًا ميتًا ما زال جميلًا. إنَّ أقبح إنسانٍ حَيٍّ لأجمل من أجمل جسد ميت. وعلى خلاف كلِّ الأمور المُحيطة بالتابوت من زهور أو عربة الموتى أوالجنازة، فإنَّ ردَّ فعلي على كلِّ ذلك كان الرُّعب. حتَّى إنِّي أعطيتُ إحدى عَمَّاتي مُحاضرة عن سُخْف ملابس الحداد، وكُنتُ أتكلَّم بطريقةٍ بَدَت لأغلب الراشدين قاسيةً وغير مناسبة

لعمري الصغير، لكنَّها كانت عمَّتي العزيزة آني (Annie) الزوجة الكنديَّة لخالي، وهي امرأة تضاهي أمِّي في رزانة عقلها ومرح شخصيَّتها. وبسبب كراهيتي لما كنتُ أشعرُ به بالفعل تُجاه الجَلَبة والهُراء المُصاحب للجنازة ربَّما أستطيع أن أتتبَّع شيئًا فيَّ، أحسبُه الآن عيبًا، لكنِّي لم أستطع التخلُّص منه بصورةٍ كاملة، وهو نفوري من كلِّ ما هو جماهيريٌّ وجَمْعيّ، ممَّا يجعلني أشعر بغُربة كالتي يشعر بها الريفيُّون البدائيُّون في المناسبات الرسميَّة.

كانت وفاة أمِّي المناسَبة التي يحسبُها بعض الأشخاص أوَّل خبرة دينيَّة لي (أنا لا أحسبُها كذلك). عندما أُعلِنَ أنَّ حالتَها ميؤوس منها، أتذكَّر أنَّهم علَّموني أنَّ الصلوات التي تُقدَّم بإيمان تُستجاب. لذلك أعددت نفسي أن أصنع في نفسي، بقوة الإرادة، إيمانًا قويًّا أنَّ الصلاة من أجل شفائها ستنجح، وعلى ما أعتقد، نجحت في صُنع ذلك الإيمان. وعندما ماتت رغم ذلك، فقد غيَّرتُ الوضع وحملتُ نفسي على التصديق أنَّ معجزة ستحدُث. الأمر المثير للاهتمام هو أنَّ إحباطي لم يُؤدِّ إلى نتائج لاحقة. لم يفلح الأمر، وماتت أمِّي، لكنِّي كنتُ معتادًا ألَّا تفلح الأمور، ولم أفكر في الأمر لاحقًا. أعتقد أنَّ الحقيقة هي أنَّ الإيمان الذي أقنعت نفسي به لم يكن دينيًّا كفاية أصلًا ليؤدِّي فشله إلى نفورٍ من الدِّين. لقد اقتربت من الله، أو من فكرتي عن الله، دون محبَّة ولا رهبة، ولا حتَّى خوف. لم يكن الله في مخيِّلتي مُخلِّصًا، أو قاضيًا، بل مجرَّد ساحر. وحتَّى إذا كان قد فعل المطلوب، كان ببساطة

سيذهب بعيدًا. لم يخطُرْ ببالي أنَّ هناك لذلك التواصل الذي حاولتُ أن أُجريه مع الله تداعيات أكبر من استعادة **الوضع الحاليّ**. أتخيَّل أنَّ إيمانًا من هذا النوع ينشأ في الأطفال، وليست لفشله أيَّة أهمِّيَّة دينيَّة، تمامًا مثلما ليست هناك أيَّة أهمِّيَّة لنجاحه.

وبوفاة أمِّي، اختفَتْ كلُّ السعادة المستقرَّة، واختفى كلُّ ما كان هادئًا موثوقًا به. لقد كان هناك، مع ذلك، الكثير من السعادة والمتعة واختراقات عدَّة من الفرح، لكنْ لم يعُدْ هناك ذلك الإحساس القديم بالأمان. لقد صارَ الأمر الآن بحرًا وجُزُرًا، لكنَّ القارَّة العظيمة كانت قد غرقت مثلَما غرقت الأتلانتس.